صالح السُّهيمي

أغنية للجياع

قصص قصيرة





صالح السُهيمي

أغنيـة للجياع

قصص قصيرة





صالح السّهيمي

أغنيـة للجياع

قصص قصيرة



النادي الأدبي في منطقة الباحة
المملكة العربية السعودية
www.adbialbaha.com



ص.ب. 113/5752
E-mail: arabdiffiusion@hotmail.com
www.alintishar.com
بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-329-5

الطبعة الأولى 2012

الفهرس

الإهداء

إلى كلِّ الجياعِ في الوطنِ العربيِّ

أُهدي إليهم أغنياتِ الفَجْرِ الجديد.

صالح

أُغْنِيَةٌ للجِيَاع

- قَاتَلَ اللهُ الفَقْرَ، كَمْ أذَلَّ أَبْرِيَاءا.

كُلَّمَا دَنَا لَيلُهُ مِنْ وقتِ السَّحَرِ هَمَّ بِالبُكَاءِ، يَبْكِي فَقْدَ أُغْنِيةٍ جَدِيدَةٍ. أُغْنِيةٌ تسربَتْ مِنْ بَينِ يَدَيهِ، وغَرِقَتْ في بِحَارِ الصَّخَب، يَبْكي لهذا الفَقْدِا، ويَبْكي لهذا الفَقْرا.

- قَاتَلَ اللهُ الكُفْرَ، كَمْ أذَلَّ أَبْرِيَاءا.

في إحدى الليالي خرجَ إلى مزرعتِهِ يُسَاهرُ قمرًا يضيءُ له الطريقَ. استندَ إلى سدرةٍ قُرْبَ بئرٍ مُقْفِرَةٍ، تلفَّتَ حولَهُ. لم يرَ أحدًا. اطمأنَّ إلى حالِ الجياعِ، أدرك أنهم نائمون في منازلِهِم، وهَمَّ أن يُوقِظَ الأملَ في صَبَاحَاتِهِ المشرقةِ، حفرَ البئرَ المعطَّلَةَ، وعزمَ على أن يُدندنَ لهُم الأغنياتِ عبرَ الصدى الصاعدِ إلى أعلى؛ ليغسلَ همومَهُم بها، وبما سيخرجَهُ من حياةٍ مخبّأةٍ في سحّارةِ الأيام.

نداوةُ البئرِ ورائحةُ الموتى تنبعثان من تحتِ قدمِيه، لكنَّ أغنياتِهِ واصلتِ الحفرَ من أجلِ الجياع، حتى هجمَ عليه الفجرُ بمخلَبِهِ الدامِي؛ حينها لامست قدمه الماء فاستيقظ الفرحُ منتشيًا برائحةِ عطرِ الجَنُوب في ذاتهِ المهترئة.

صعدَ إلى أعلى نافضًا يديه من أغنياتِه، فرأى المؤذنَ يتهادَى إلى المسجدِ. اختبأ خلفَ البئر. وعادَ بصمتٍ إلى منزلِهِ مرددًا:

- قَاتَلَ اللهُ الفَقْرَ، كَمْ أذَلَّ أبْرِيَاء!.

- قاتلَ اللهُ المرضى والأغبياء!

- قاتلَ اللهُ النساء من الرجال!

- قاتل الله الجميع!!!

ثم توجَّهَ إلى المسجدِ وصلَّى الفجرَ مع جماعتِهِ، وبعدما فرغَ الشيخُ من صلاتِهِ استدارَ إلى الحاضرين، وقال:

- يا قوم... وأنا في طريقي إلى المسجدِ سمعتُ نشيدًا جميلًا في البئرِ القديمة!

ضحكَ الحاضرون على الشيخ، وابتدره شيخُ القبيلةِ بسؤالٍ مباغتٍ:

- هَلْ نِمْتَ مع زوجتِكَ ليلةَ البارحة؟!

خَجِلَ المؤذنُ من سطوةِ شيخِ القبيلة. وطأطأ رأسه إلى الأرض، مدركًا أن شيخَ القبيلةِ يسخرُ منه. نهضَ أحدُ الصعاليكِ الكبار طالبًا من الحضور الذهاب إلى البئر ليتأكدوا بأنفسهم.

فنهضَ الشيخُ أمامَ وجاهةِ الرأي واستدركَ فداحةَ ما قامَ به مع صاحبِهِ المطيع، مصطحبًا المؤذنَ والجماعةَ إلى

البئر، فرأوا آثارَ ماءٍ في القاع، فبادرَ الصعلوكُ بالنزولِ إلى البئرِ؛ ليتأكدَ من حقيقةِ الأمر، فصاحَ بالجميع... أنَّ الماءَ أصبحَ حقيقةً وعذبًا على غير عطائِه السابق، فأمرهُ الشيخُ بالصعودِ فورًا!!

واتجهُوا إلى منزلِه العامرِ للبحث عمَّن قام بهذا العمل؟!

في مجلس الشيخ رحَّبَ بالجميع ودار نقاش كثير، فقال:

- يا قوم تعلمون بأنِّي أنا مَنْ أمرَ بحفرِ هذهِ البئر قبلَ ثلاثين عامًا، وأنا مَنْ أمرَ بهجرِهَا... فمن الذي تجرّأ على حفرِهَا دونَ عِلْمِي؟!

قال المؤذنُ:

- لا أحدَ يجرؤ - يا شيخ - على القيامِ بعملٍ دونَ استشارتِكَ.

قال الصعلوكُ:

- وما الضيرُ في بعثِهَا من جديد!

- أنتَ تعلمُ أنها أصبحتْ في ملكيَ الآنَ!!!

- لكنَّهَا قبل ثلاثينَ عامًا كانت ملكًا للقرية!

قال أحد الحاضرين:

- الشيخُ له حقُّ التصرّفِ الآن، وما يأمرُ بِهِ مطاع.

انفضَّ مجلسُ الشيخِ، ونهض المغنّي يجرُّ أذيالَ السلامةِ مِنْ أنْ يفتضحَ أمرُهُ، واتجهَ إلى منزلِهِ في طرفِ القريةِ، ونامَ نومًا عميقًا لم يشعرْ بنفسِهِ ولا بمَن حولهُ مِن الجياعِ حتى أفاق في منتصف الليل على دندنةٍ خفيَّةٍ تتسربُ في هدأةِ الليلِ عبرَ نسيمِ الليالي الربيعية.

فتَّش عنْ لقمةٍ يقمعُ بها فقرَ بطنهِ المتهالك، لم يجدْ سوى فتاتِ الخبزِ اليابس، لملمهُ بكفيهِ ووضعهُ في إناء ماء بارد، وأسكتَ به فقرَ ليلته مترنمًا بأغنية طالما أحبها «هذه ليلتي».

وحين أشرقتِ الشمسُ الربيعيةُ توجَّه إلى البئرِ فرأى شبكًا من حديد يعلو فوهةَ البئر، وأسلاكًا شائكةً تحيطُ به، وأنبوبًا يندسُّ في بطنهِ لجلب الماء إلى منزلِ الشيخ. اقتربَ من البئر طائفًا به. هالَهُ الأمر. فهامَ على وجههِ باحثًا عن أغنيةٍ للجياع.

آنسة الفيافي

قرّرَ أن يذهبَ بأسرتهِ إلى البحر في نزهةٍ قصيرة، حيثُ الصخبُ، والملاهي المتناثرة على الشاطئ، لكنه سرعانَ ما عدلَ في طريقهِ تحت إصرار ابنته الصغرى.

- «بابا وديني عند أمّولة»؟!

- غالي والطلب رخيص... حياتي.

حين أنزلَ عائلتهُ عند والدته، عادَ إلى منزله وحيدًا، فكانتْ ليلتهُ صامتةً، وإحساسهُ بالفراغ يكاد يقتله، توجَّهَ إلى غرفةِ النوم. تمدَّد على الأريكة وإذا بها تأتي في بهاء الفاتنات:

- لا ترتعدْ... فقد أرسلني سيِّدُ الفيافي من غربِ هذه البلاد.

- أطلبْ مني ما تريد؟! وسألبّيه على الفور قبل أن يرتدَّ إليك طرفُكَ.

تمالكتُ نفسي، وقلتُ:

- أخرجي قليلًا، سأفكِّرُ في أمنيتي!

أغمضتُ عينيّ. وتساءلتِ الذاتُ... هل أحلمُ؟! أم أنَّ التعبَ قد بلغَ مني مبلغه. ماذا لو حاولتُ أن أجاريَ

الموقف برباطة جأشٍ هذه المرة؟. فكم عشت مغفّلًا في أزمنةِ الصمت! عشت أدافعُ زمنًا بريئًا عن حاجاتِ الآخرين... وهمسُ طرقٍ رقيقٍ على الباب يلحُّ على أذني طالبًا الدخول، قلتُ:

- تفضلوا!
- هل فكرتَ سيّدي في أمنيتكَ؟
- نعم.
- وما هي؟!
- وما المقابل؟! (قلتها مرتبكًا)
- لا شيء إنها المحبة والتقدير والتكريم ليس إلا.

دعوتها أن تستلقي بجانبي دونَ أن ينظرَ أحدُنا إلى الآخر، والقلبُ يرجفُ من عطرِها الموغلِ في التأريخ! في طرفة عين تمددتْ على السرير، فسألتْ عن أمنيتي:

- يا سيدي إن ما تطلبهُ الآن يأتيك في لحظة يسيرة، وبدون مقابل...
- الذي يقلقني يا سيدة...
- لو سمحت آنسة...
- عذرًا يا آنسة الجن...

قاطعتني قائلة:

- آنسةُ الفيافي بنت سيد الفيافي شيخ صعاليك الجن في الغرب!

ضحكتُ، فالتفتتْ إليّ مغضبة، فكادت تنزع قلبي بوجهها المشع نورًا، وعطرِها الآسر، تداركتُ الموقف، صارفًا الحديث إلى وجهة أخرى:

- عذرًا سيدتي فنحن الصعاليك همّنا تهذيب المجتمعات منذ القدم، وما دامت القبيلة بشيوخها ورجالها وقادتها يشوّهون تاريخ الصعلكة، فلن تقوم لنا قائمة؛ لأننا مهتمون بشأن الفقراء! ولم نعهد يومًا أن جاء أحد لتكريمنا... قاطعتني:

- ولهذا يا سيدي أتيت برغبة أكيدة من والدي وتشجيع كبير من أخي أن نكرمك.

- أيُّ تكريم تتحدثين عنه، وما الذي فعلتُهُ من أجل الصعلكة؟!

- نعرفُ تاريخك المشرف الذي نتابعه منذ خشونة أظفارك...

تبسّمتُ ضاحكًا، وجلستُ على الأريكة، فكانت قبلي جالسة، فسحبتُ ركبتي بلطف نحو ركبتيها، وقالت:

- أتضحكُ من «خشونة أظفارك»!

- نعم سيدتي. فأنتِ تصغرينني بعشرين عامًا!

ابتسمتْ قائلةً:

- أعلمُ أنَّ عمرَك شارفَ العقدَ الخامس، وأنت

ترفلُ في عناء العيش. . . وشظفُ الحياةِ قد وسمَ فيك وشمًا جاهليًا!

- يا سيدتي أنا لم أسأل امرأة قط عن عمرها، ولكن بما أنكِ تعرفين تاريخي وعمري والمعاناة التي عركتني كثيرًا، سأغامرُ وأسألكِ عن عمرِكِ؟!

- وكم تتوقع؟!

- عشرون. . . ثلاثون ربيعًا.

افترَّ ثغرها عن بَرَدٍ ياقوتي الجمال. فقالت:

- يا سيدي عمريَ الآن أكثر من مئتي سنة (مما تعدّون)!

تمددتُ خَجِلًا على فراشي، وأقعدتني سائلةً عن الأمنية، فقلت فورًا:

- اثنا عشر مليارًا فقط. فأنا فقير كما ترين!

قالتْ:

- بالدولار الأميركي أم بالريال العربي.

- باليورو الأوروبي سيدتي!

- أتريدها في حسابك!

- لا. في حسابات مفرّقة، وبنوك متعدّدة، ومليار بالريال العربي عندي هنا في منزلي. . .

نسيمها البارد، وعطرها الآسر، يعبق بأجواء

غرفتي... وفي لحظة سمعتُ حركةً يسيرة للباب، وصوتٌ يناديني:

- هي بانتظارك في المجلس...
- من هي؟!
- النقود التي طلبت.
- ...

لفني صمت مخيفٌ. وحين أدركتُ خوفي، رمت بشرشفها الحرير الأسود على وجهي، منصرفة بلطفٍ ساحرٍ!

توجهتُ إلى المجلس مرتديًا ثوبًا جديدًا. وشرشفُهَا الحرير على رأسي، سرتُ في صالة المنزل متأملًا الصمت المطبق على جدرانها؛ ورائحة المكان معطرة بعطرها الآسر، حتى وصلتُ إلى المجلس فوجدتُ النقودَ صادقةً ككل الصعاليك!

أنثى الليالي التي...

الليلُ يتوغلُ بخطواتِه الوئيدة في قدمي اليسرى، ويقتربُ بي إلى حافةِ الموت، فالألم لم يعدْ ذلك العدو الذي كان يخشاني أيام الشباب، بات الآن يشلُّ أطرافي المرتعشة، ويثير في ذاكرتي صفاقة المراهقة الأولى!.

بعد أنْ أجريتُ العمليّة تماثلتُ للشفاء من بعض أوجاعي سوى دائي الوحيد الذي لم أخبرْ به أحدًا؛ سؤالي الحثيث عن الوقت يكشف الوجع الذي أعانيه. دائي المرهون بالزمن وانتظار عقارب الوقت!

لم يكن الوقت متأخرًا كما كانت تظنه الممرضة، فهي لم تعتد الساعات المتأخرة من الليل، ولا تعرف الليالي كما أعرفها أنا! أردت فقط أن أشعرها بأنَّ ما تقوم به؛ خدمة رديئة جدًا في المستشفى الحكومي!

سألتها:

- الساعة الآن الرابعة صباحًا؟

- نعم أيها العجوز...!

- شكرًا بنيتي؛ ولكن كيف عرفتِ الوقت وأنت لا تحملين ساعة في معصمك؟!

- أيها العجوز كم أنت مقلق... ألا تصدقني!
- أصدقك... ولكنه استفسار لا يحدث بيننا نازعة شكٍّ شيطانية!
- إنها الرابعة وخمس دقائق كما تشير ساعة «الهاتف النقال»، وتبقى على انتهاء دوامي نصف ساعة... أرجوك أنْ لا تلحَّ عليَّ بأسئلتك الـ...!

لم يكن الوقت متأخرًا بالنسبة إلي؛ لأني رجل عجوز تقدمتْ به السنّ، ولم يكن الوقت متأخرًا أكثر لدى الممرضة الشابة التي تتباهى بحياة الربيع؛ بل كل ما في الأمر أنَّ الزمن فقط كفيلٌ بإرضاعنا التجارب بين الفينة والأخرى... لم أطلب منها شيئًا الآن... استسلمت للأمر، فتناولتُ كتابًا والتزمتُ الصمت.

في اليوم التالي... حضرت الساعة الرابعة والنصف مساء، تحمل عبوة المضاد الحيوي؛ لتجعله في أحد عروقي المندسة... أخطأتْ وأحسست بألم الإبرة التي باتت تتوغل في جسدي المريض. تبسمتْ في وجهي الكئيب، وقالت معتذرة:

- هل آلمتك الإبرة سيّدي؟
- لا. لا... لم تؤلمني، ولكنها ذكرتني بحكاية قديمة... سأحكيها إن أردتِ ذلك.
- لا. لا. ليس الآن فلدي عملٌ كثير.

أردتُ أن أخبرها برداءة الزمن الذي جاءت فيه المرأةُ العَجِلَة، ورداءة ما تقوم به، أردتُ أن أحكي لها حكاية من ذاكرتي علَّها تفيق من غطرسة الشباب الذي تأوي إليه!

دخلت عليّ متذمرة في الساعة الثامنة من صنيع زميلها الغادر بها، قائلةً:

- كل الرجال خائنون!

سألتها، هل تريدين أن أحكي لك الحكاية الآن؟

قالت: حقيقة أنت رجل تحبُّ الثرثرة! تحبُّ هذرَ الليالي!! هل تراني في مزاج رائق لأسمع حكاياتِكَ الطاعنة في القدم!

- يا بنيتي... بالحكايات نعرف البشر، ونلمُّ بأفعال الإنسان. بالحكايات نتوغل في الأفكار والشخصيات والأقنعة، بالقصص ندرك ماهية الأشياء، ونصنع جسورًا لمعرفة الواقع وما فيه من مآسٍ وهموم.

- هذه الثرثرة التهمها الزمن يا سيدي؟!

- الحكايات لم يلتهمها الزمن كما يظن كثير من الناس؛ بل ستظل عبر السنين خالقةً فينا عَظَمَة التاريخ وسقوط البشر...

انصرفتْ لا تلوي على شيء، وقلتُ في نفسي: هيَ بدايةٌ طيّبةٌ، ولكن ما الحكاية التي سأرويها... أعلم أني أحفظ الكثير من القصص والحكايات، ولكن أيّ حكاية

ترقى لهذا المقام، وما الذي سأحكيه لها في ظرفها المؤلم كهذا؟!

سأروي لها حكاية شهريار وشهرزاد وصراع الأنثى والذكر عبر الأزمنة والليالي الغابرة، لكنها ربما ستنتصر على عجوز مثلي من حيث «أدري»؛ ولأني أعلم بتصرفها الأحمق الذي ربما سيقع؛ سأجازف بحكاية الليالي لها، سأرويها بأسلوبي ما دام المؤلِّف غير معروف، سأروي الحكايات التي تذكرني بالموت، وتشعرها بالحياة. سأروي لها هزائم الموتى، ولكن سأشترط عليها أن تودع روايتي خزينة قلبها. . . سأروي لها علّها تعي وتحفظ ما سأقوله؛ فأنا أقرب إلى ساعة الموت، ودائي سيحفظ لي الزمن الكافي لسرد بعض حكايات قديمة.

غابت ساعةً وعادت كتلميذة مطيعة، حين دخلت عليَّ بادرتني بابتسامة ملؤها التوسل الذي يخفي وراءه معنى الاقتراب! سألتها بلطف هل تريدين أن أحكي لك حكاية؟

- كما تشاء أيها الأبُ الكريم.
- سأخبركِ بالليالي.
- وما الليالي هذه التي تريد حكايتها.
- هل سمعتِ بحكايات الليالي العربية «ألف ليلة وليلة»؟
- لا. لم أسمع بها. هل هي كقصة روميو وجولييت؟!

- بل أجمل منها... ولعلَّ افتتاننا بحكايات الغرب أفقدنا سحر الحكاية الشرقية.

- هل الحكاية طويلة...؟

- لا ليست طويلة، بل هي طويلة جدًا ستستمر لأكثر من ألف ليلة تقريبًا.

ابتسمتْ وقالتْ: ما الذي تقوله؟ وما الحكاية التي ستستمر لأكثر من ألف ليلة؟!

- حكايةُ الليالي تعتمد على الصبر بنيتي، ونهايتُها تعلمنا الاستسلام لجائزة الإصغاء، فإذا صبرتِ سأختزل لك بعض القصص، وسأخبركِ بالحكايات في وقت وجيز!

- نعم سأصبر، فأنا لم أختر مهنة التمريض إلا امتحانًا لصبري.

بدأتُ لها قصة الليالي والخيانة التي آلمت شهريار، واسترسلت في الحكي حتى بلغتُ ما فعلته شهرزاد مع والدها الوزير... والتزمتُ الصمت بإنهاء الحكاية.

رأيتُ دموعها تهطل على خدها البهي، شعرتُ بملوحة دمعها يجري في فمي، لأني لا أقوى على دموع امرأة حتى وإن كانت ممعنة في الكذب! أخبرتُهَا بأني سأكملُ لها الحكاية في اليوم التالي... إلا أنها ارتأت أن تعود بعد منتصف الليل لتستمع إلى ما تبقى.

- وأنا بانتظارِكِ.

- شكرًا لكَ.

خرجتْ ماسحةً ماء عينيها بمنديل ناعمٍ معطر، كانت تحمله في يديها المتعرقتين، وحين رجعتْ بعد منتصف الليل تظاهرتُ بالنوم، ثمَّ انصرفتْ مع شعورها بالحزن!

طلبتُ استدعاء الممرضة بعد ساعة، فأتتني راكضة مبتسمة، مدت يدها بلطف إلى مفتاح الضوء الأخضر، وقالت:

- أي خدمة...

- كم الساعة الآن؟

- إنها الواحدة والنصف صباحًا.

- آه... عذرًا بنيتي ربما نمت قليلًا، ونسيت أن أكمل لك الحكاية. أسنديني حتى أستطيع النهوض إلى دورة المياه.

في «الحمّام» سألتُ نفسي: هل سأخبرها بكل الليالي؟ وهل سأواعدها في الساعات المتأخرة من الليل؟ ربما سأفعل... ولكني أشعرُ الآن بالتعب في هذه الساعة المتأخرة.

الشعور ببرْدِ الليالي شعور بموت مبكر، فأنا لم أعد أبالي كثيرًا بالموت، والاقتراب من الأنثى يشعرني بالموت!

في اليوم التالي شعرتُ بارتفاع حرارة جسدي، تناولت الجهاز واستدعيتُ الممرضة، ولكنها لم تحضر،

وضغطت على (الزرّ) ثانية، فجاء الممرض متضجرًا لهذا التصرف!

- ما الذي تريده يا عمّ؟

- لا شيء... سوى الحمّى... أشعر بأنَّ حرارة جسدي ترتقي بي إلى السماء!

- حاضر... سأقيس الحرارة والضغط الآن.

وهو يقوم بقياس الضغط سألتهُ عن الممرضة، حاولت أن لا أعير السؤال كثير اهتمام؛ بل جعلته مجردًا من العواطف، تركته عابرًا - رغم تأخره في الرد - وتائهًا في فضاء الكون!

- إنها هناك... في القسم الآخر من العيادات، أصبحت كبيرة الممرضين، وصارت ترأسنا!

- سبحان الله ميّادة أصبحت كبيرة الممرضين!

- لا يا عمَّ ليست هي...؛ بل زميلة أخرى تقدمت لخطبتها.

- مبارك يا ولدي!

أنهى قياسَ الضغط والحرارة وولّى هاربًا بابتسامة تغفرُ له عجلته في تقديم خدمة أرقى للمرضى! ولّى وجهه مسرعًا حيثُ أنثاه الفاتنة، مفتخرًا بها أمام زملائه والزميلات!

دخلت عليَّ ميادة ووجهها متضجرٌ من رجل مرَّ بها

قبل قليل! بادرتُها بإكمال الحكاية، فهذه الليلة الأولى التي لم أجد أحدًا أتوسل إليه لأبتدئ معه الحكاية.

سحبتْ كرسيًا واقتعدتْ بجانبي ورائحة الأنوثة تثري المكان بعبق جميل، يبدو غريبًا هذا العبق الأنثوي، بل ربما أنفي لم يعدْ قادرًا على ملاحقة عبق النساء!

- بماذا ستحدثني الليلة؟ فهذه ليلتي...!

- قصة التاجر والعفريت.

وحين انتهيت من القصة قبَّلتْ جبهتي... وأسرعت هاربة إلى عمل قصير...، حاولت أن أزجي الوقت بحكاية أخرى تزيد من قبلاتها الحانية!

شعرتُ حين غادرتني بوخزة داخلَ صدري العجوز، تعيدُ لي شريطَ ذكرياتٍ باهتًا مررتُ به... في إثرِها أشعر بارتقاء البرد يسري في عروقي كأنثى تحبو ببراءة وتقف؛ لتتعثر من جديد!

لم أكن شهريار زمني، ولم تكن هي شهرزاد وقتها!

سمعتُ شيئًا ما يشبه الصراخ، يخترق حواجز الصمت، يخلخل بياض الأسرة البالية...!

- ياسيّد الليالي... أنشاك بانتظار إكمال القصص...!

- يا رجل الحكايات... أنا. أنا... أنثى الليالي التي...

- ...

عَـزْفُ الراحلين

استلقى على أريكتهِ ذاتَ ليلٍ كئيب، وبكى فراقَ أحبابِهِ الراحلين، تناول النايَ الخشبيَ من حقيبتِهِ القديمةِ المخبأةِ في غرفتهِ، فبدأ عزفَ أغنيةٍ حزينة.

لم يودّعْ طفلتَهُ الصغيرة.

ولم يرَ ابنهُ أحمد.

ولم يقبّلْ يدَ هند.

ولم يفقْ من سَكْرةِ الفراق.

لم يفقْ إلا عندما انتهى من معزوفة الرحيل.

نهضَ من مكانهِ ودموع الحرقةِ تشعلُ الذكريات الدفينة. اتجه نحو المطبخ ليحتسي الشاي المعطر برائحة الحزن، تذكّرَ النايَّ الحزين مستلقيًا على الأريكة، فهمَّ بالخروج؛ ليحضره إلى المطبخ. وجده ساهمًا متأملًا الفضاءَ من حوله، فسأله:

- أتنتظرُ أحدًا سيأتي؟!

لم يُجِبْهُ... ورائحة الحزن تستنجدُ به... تذكّرَ الشاي، فاتّجهَ إلى المطبخ ليجد إبريق الشاي يحتضر!

ويلفظ أنفاسهُ الأخيرة، والدمُ المسكوبُ يعطرُ أرجاءَ المكانِ بالحزن.

حملَ جسدَهُ وخرجَ إلى غرفةِ الأطفال، رأى سريرَ هند الوردي، وطاولةَ أحمد السماوية، وألعابَ ابنته الصغرى؛ فبكى بحرقةِ الصغار حينما يفقدون ألعابهم الثمينة. . .

لملَمَ بقايا حزنِهِ المقيت، واتجه إلى الشاطئ القريب مصطحبًا أنيس وحدته، وعازف آلامه، وقف على الشاطئ. تأمل هدأة الليل في وقت السحر منتظرًا بزوغَ فجرٍ جديد. اقتربَ أكثر من البحر. سأله:

- أتنتظرُ أحدًا سيأتي؟!

- أتنتظرُ أطفاليَ الصغار؟!!

استلقى على ظهرهِ ونظرَ صوبَ السماء المتلألئة بحبات النجوم. رأى حرف السين المقلوب، ونجمًا وحيدًا في اتجاه اليمن ينتظر اقتراب النجوم إليه. حدَّقَ إلى النجوم الثلاثة المتجاورة. أخرجَ الناي الخشبي وعزفَ للبحر معزوفة الرحيل، غنّى للنجوم، والسماء الساحرة.

أصمتَ نايَهُ واستسلم لنومٍ عميق، ومع إشراقة الصباح استيقظ على نقراتِ طيورِ النورس، تنقرُ جبهةً مثقلةً بالألم؛ أتعبها الحنين. نفض رملًا نديًا التصقَ بجسده، تكاد ملوحتهُ تغرزُ خناجرَها المتوغلة في مسامات جلده البرونزي.

في الطريق إلى منزله استوقفه جاره، وسأله:

- لماذا أنت رثُّ الحال؟!

- كنت في البحر أقتات بهمّ الرحيل.

- هل أنت بحاجة إلى مساعدة؟

- نعم.

- تفضل...

- تفضل أنت... وانصرف عن وجهي!!

تمتم جاره بكلمات ومطَّ شفتيه، واستظل بخجله من حال صاحبه، منصرفًا إلى طريقه. نَدِمَ صاحبُ الناي على تصرفه المشين، وقال:

- أيّ حماقة ارتكبت!

- كل من تعرّفَ عليَّ رحلَ، وتركني وحيدًا أساهر البحر والناي والليل!

- كلهم رحلوا! وبقيت وحيدًا مع الناي أعزف أغنية الراحلين!

دخل منزله واستلقى على أريكتهِ، واستسلم لنوم عميق يشبه عزف الراحلين.

حياة جديدة

- كلما دنا القمر شعرتُ بأحلام الثراء تقترب من رأسي.

يدنو القاربُ من الساحل، والقبطان عثمان الرشيدي يستحث أقدامنا بالصعود بسرعة؛ خشية أن يشي به أحدٌ ما.

صعدنا متن القارب في عجلة لا أحبذها كثيرًا، ولا يحبذها الكثير من السودانيين، صعدنا؛ وأملٌ يختلج في أرواحنا بالثراء، فالبحث عن عيش أفضل، وتأدية العمرة؛ من أكثر الأسباب التي دعتنا إلى اللجوء إلى هذا القارب التعيس، السودان لم يعد سودان الآباء والأجداد. أصبح بلدًا مخيفًا، ومضطربًا، كأنّ لعنةً أصابته!!

القارب يمخر عباب البحر، والقبطان يثيرُ لدى الكثير منا نحسًا وخوفًا؛ بل يثير اشمئزازًا كريهًا من أردى ما يتصوره الإنسان الذي خلق على الفطرة طيّبًا ومسالمًا. نقتات التمر، واللحم المقدّد، ولا نلجأ إلى الماء إلا حينما يبلغ منًّا العطش مبلغه، يصيح بنا القبطان وقت السحر بعد ثلاث ليالٍ مؤلمة:

- هيّا قوموا يا جماعة... وصلنا بالسلامة (كررها عدة مرات).

- إنه النور... وصلنا إلى السعودية!!

بات الفرح يسري في عروق النائمين. والغيمة السوداء تعترض صفاء القمر، صفاءً يزرع الأمل في نفوس المهاجرين. ويمتد الفرح بالنور القادم إلى أعينهم من الطرف الآخر رغم تعاسته وخفوته.

حاولتُ أن أستنهض الآخرين على عجل، وأُوقظهم من سباتهم الرحيم؛ فشرط القبطان مقلقٌ لنا، فهو طالما يكرر بأنه سينزلنا قبل الشاطئ خشية سلاح الحدود والبحرية، ونزولنا متبوعٌ بالعجلة وخفة الحركة!

نزلنا إلى اليابسة... سألته عن هذا الشاطئ فقال: إنه شاطئ مدينة القنفذة!

قلت له: أليست المدينة مضاءة بالأنوار.

لم يعرني الاهتمام في بادئ الأمر...

فردَّ مستحثًّا الآخرين: إنهم هنا لا يشعلون الأنوار حفاظًا على الكهرباء!

قال أحدهم: مدينة بائسة لا يوجد بها أنوار!

أردفت امرأة: هيّا تحركوا فقد وصلنا إلى اليابسة... أليست أرحم من البحر الذي أصابنا بالدوار!! وألجمنا كثيرًا... تحركوا...

اليابسة تعني لهم الانتقال إلى حلم الثراء، والانتقال

إلى بلسم الحياة، فمخاطر البحر كانت ماثلة أمام أعينهم، واليابسة أرحم من هذه الأمور التي باتت خلف ظهورهم!

توجهوا إلى نور باهت بدا لهم في الجانب الآخر من الشاطئ، بقايا نار آلت إلى الهروب من سجن البرودة. تقدموا قليلًا. سمعوا ضحكات تأتي من بعيد. وصوت القادمين يثير فيهم انتباهةً حيرى. الحركة في الأحراش توقظ أحاسيسهم. نهضوا بحذر وتقدموا حتى التقى الجمعان.

اقترب أحد البحارة، فرحب بالإخوة القادمين؛ والضحكة تعلو ترحيبته الخجلى! تقدمتُ إليه. شكرته، وحين تأملته جيدًا شعرتُ بأنه لا ينتمي إلى الشرطة، فسألته لماذا تضحك يا عمّ!

قال على الفور: الأخوة من السودان صحيح... وجاء بكم الرشيدي... وأنزلكم هنا وعاد بسرعة... وأخبركم بأنَّ هذه الجزيرة هي شاطئ القنفذة التي لا تبتعد كثيرًا عن مكة المكرمة... كلما سأل البحار العجوز؛ أجبته بـ نعم خجولة، إجابة تحتضنها الحيرة والألم!! أحرّك رأسي بحزن مرير؛ متشوفًا لنتيجة باتت ملامحها تتجسد أمامي، والخوف يبتلع ريقي!!.

- يا ولدي مرحبًا بكم في جزر «الطويلة».
- «الطويلة» يا عم دي شنو!!

شعرتُ بأنّي تخليت عن ثقافتي التي تعلمتها في

السودان، أحسست بأنَّا وقعنا في فخٍّ كبير نصبه لنا «ابن جلدتنا» اقتربت منه أكثر، وكررت عليه السؤال:

- «الطويلة» يا عم دي شنو!!
- يا ولدي جزر «الطويلة» تبعد عن القنفذة مسافة طويلة، ولن تبلغوا هذه المسافة إلا بقوارب، أو أن تستعينوا بالشرطة...
- «الشرطة». لا. أليس هناك حل آخر يمكننا أن نتدبره.
- يا ولدي نحن بحارة نصيد السمك فقط، ولا يمكن أن ننقل أحدًا فخفر السواحل مخيفٌ، فهم هنا يغرّمون من يجدونه يهرب «متخلفين»!
- احترم نفسك يا زول! (قالها أحد المسنين من جماعتنا).
- يا حبيبي أنا لم أقصد إهانتكم. عندنا من يتخلّف عن الرجوع إلى بلده نطلق عليه متخلّفًا. فهمت الآن!

هزَّ رأسه ومضى، ونادى جماعته أن يتراجعوا إلى الوراء. تبعته الجماعة؛ وحينها سرتُ خلفه دون أن أفهمَ ما يريد!! وما سنكون عليه. دعانا المسنّ إلى اتخاذ قرار فيما سنكون عليه، وخيّرنا بين التخلّف أو الموت غرقًا، أو الموت في الجزيرة.

- يا عمّ لماذا تبدو متشائمًا...

قاطعته المرأة:

- يا ولدي نحن حبسنا أنفسنا ثلاثة أيام بين شمس حارقة وقمر فاضح، كنا نعاني ألم الجوع، وحرج قضاء الحاجة في القارب، وعانينا ظلم الرشيدي الذي خدعنا... بالله عليك بعد هذه المعاناة تريدنا أن نتفاءل!!!

بدا الخوف يخيّم علينا كأنه سحابة دكناء غطت نور القمر الذي كان يضفي على وجوهنا بياضًا مطمئنًا، ابتعدنا عن الأصحاب الجدد، توارينا بخوفنا في الجانب الآخر من الجزيرة، سقوطنا في الفخ الذي قيّد الحركة زاد همّنا حزنًا وكآبة. تحلّقنا بعضنا حول بعض كالقنافذ الشوكية...

وفي صبيحة يوم جديد نصحو على صوت الطيور البحرية المحلّقة فوق رؤوسنا تنتظر موتنا بفارغ الصبر! صحوت على صوتها القلق، وأيقظت من كان بجانبي حتى صحا الجميع... وتشاورنا في وضعنا، وفي الخطوة التالية التي يمكننا أن نتدبرها...

قال أحد الشباب: نصنع قاربًا...

صوت: من أين يا حسرة!

ضحك البعض...

قلت نستعين بالبحارة الذين وجدناهم ليلة البارحة.

- هذا هو الرأي.

انطلقنا إلى الجانب الآخر من الجزيرة، فوجدنا رماد

نارهم قد أعلن ساعة الرحيل، وبعض زجاجات من الماء؛ التي كانت تحمل رسالة قرأت فيها معنى: أن نتدبر حالنا بأنفسنا!!

لا أحد في هذه الجزيرة يسمع معاناتنا، ويقرأ صوتنا، ويرى مقدار الألم الذي بداخلنا، هكذا بدت الأمور، وهكذا استقرت الحال!! فتراسل الحواس أخذ ينبئ بحالنا المؤلمة.

صاحت المرأة: ياالله عونك وسترك يارب!!

أخذ الرجل العجوز يهدئ من روعها. ويحاول إسكاتها.

مكثنا إلى اليوم التالي، والطيور لم تبتعد عنّا كثيرًا؛ إلا أنها توارت ليلًا واختبأت في مكان قريب، علّها تظفر بطعام يليق بصبرها، استسلمنا إلى القدر، واستلقيت بالقرب من الشاطئ، فتناولت كتابًا كان معي في حقيبة صغيرة، أقرأ قصص الموت، ومعاناة رجال ماتوا تحت الشمس... وفي المدى تظهر سفينة بيضاء. تقترب أكثر. تبدو عسكرية. تقترب من الشاطئ. تطلب منا الاقتراب والتجمع بالقرب منها. وصوت عسكري يأمرنا بالاقتراب أكثر؛ لمساعدتنا، تحلّق القوم دون أية مقاومة... تخلّيت عن الكتاب، ودفنته خلفي قبل أن يراني أحد. شعرتُ وقتئذ أنَّ الحياة لا تُقَدّر بثمن، وأن الكتب والثقافة تمنحنا الفقر، وقتئذ فقط أحسستُ بأنهم منحونا حياةً جديدة...

مشالح مزيّفة

- لا أحد يستطيع منّا أنْ يقفَ احترامًا لمشلح؛ ويعلم في قرارة نفسه أنّه مزيف!

حين هاتفتُهُ ابتدرني صديقي الدكتور بهذا الصراخ، والغضبُ يثير جيوشًا حزينة بداخله... ومرارةٌ مؤلمة تحتضر في ذاته نافضةً أنفاسها الأخيرة، أعلمُ جيدًا مدى الألم الذي يعتوره حين يُشاهد هؤلاء...!

- يا رجل هدئ من روعك... وأخبرني بما حدث!

- هؤلاء يخدعون ذواتهم المريضة، ويزرعون وهمًا بها... يسقونه بماء أسيادهم النتن!!

- يا عزيزي اهدأ وحدثني... ماذا جرى؟!

- هؤلاء الو ص ول ي ون...

قاطعته:

- مَنْ «هؤلاء...»!!

- سَاعِد وسعود. أليسا أحمقين متخلّفين!!

- صدقتَ... هما كذلك... ولكن ما الذي حدث؟ وجعلك تزمجر غضبًا وتخرج عن طوعك!!

- قل... وما الذي لم يحدث يا دكتور...؟!

حين جاء الدكتور أحمد إلى الجامعة كان يحمل الكثير من الأفكار التي جعلته يترك أثرًا جميلًا بين أصدقائه، وطلابه... قَدِمَ شابًّا متخرجًا توًّا من جامعة مرموقة خارج الوطن. التحق بعد صعوبة في اجتياز المقابلة، فهو لم يلتحق بها لولا سمعة الجامعة... أرمقُهُ من بعيد حين يساعد الآخرين، ويقترب منهم، ويتودد إليهم، ويسعى إلى طلب العلم والمعرفة... سعيتُ وقتئذ لأنْ أتبنى موهبته، فكنت أزجُّ به في الندوات والمؤتمرات الدولية...

صاح بي قائلًا:

- أين سرحت يا دكتور؟!

- وما المشكلة الجديدة دكتور أحمد؟! (قلتها مبتسمًا)

- قل مشاكل لا تنتهي... يا دكتور أقفل سماعة الهاتف؛ سأزورك الآن إنْ أردت.

- على الرحب والسعة.

دخل المنزل قلقًا متذمرًا من حال الجامعة وإدارتها المريضة، لاعنًا مديرها والمسؤولين، لاعنًا الأوغاد فيها... سمعتُه يعوي كثيرًا هذا المساء؛ حتى غدا أرجوحة بين نُبَاحِهِ وأَلَمِهِ!

- تقول لي مشاكل... ما الذي حدث هذه المرة!
- (ساعد) وكيل للجامعة، و (سعود) مدير للمالية! يعني حاميها حراميها!

ضحكت من هذه المشكلة، واتجهت به إلى المكتب الخاص بضيوفي من أرباب الفكر والثقافة، قلت له:

- تعال هنا دكتور أحمد نحتسي الشاي المعطر بالنعناع المدني.
- غريبة هذه الضحكة أستاذنا العزيز.
- لا بأس صديقي هوّن عليك... كنت جازمًا أنك ستأتي في يوم ما تشتكي فيه أصحاب المشالح المزيفة!. ياَ صديقي إن هؤلاء قلّة قليلة داخل الجامعة، ولعلك إن حاولت الخروج خارجها؛ لرأيتهم أكثر بكثير مما تتصور!
- وما العمل إذًا؟!
- ما قاله جدّي لي ذات مساء جميل: «كن أسد تاكل مشعاب، وكن ذرّة تاكل سكّر»!

صمت

«الصمت يبعثر فينا ضجيج النهار!»

هكذا سمعته يدغدغ بها أذني، حين هاتفته قبل شهرين.

أوقف سيارته الصغيرة في موقف المستشفى بجانب عمود إنارة يقف شامخًا وسط ضجيج النهار وهدأة الليل. يحدقُ إلى أرجاء المدينة بصمت قاتل، باتَ يشبه الكثير من الناس في نومه ويقظته!

ترجّل الرجل وزوجته من السيارة، واتجها إلى العيادة، تقدّمَ زوجته بضع خطوات، شعرَ بتأخرها عنه، التفت إلى الوراء. وجدها تعثرت في مشيتها؛ كأنها تقدم رجلًا وتؤخر رجلًا أصابها وحل طيني!! دخلا العيادة والأعين تتسللُ إليهما لمعرفة ما يشكوان!!! البرودة عالية في غرف الانتظار. والضجر يقبع في الذوات المهترئة. والرهاب يعتلي هامات المرضى والمرافقين!!

- يا خالد... لكل واحد منّا حكاية!

- أكيد... فهؤلاء لهم حكاياتهم... والصمت يبعثر فينا ضجيج النهار!

أنهى المكالمة الهاتفية إثر انقطاع في شبكة الاتصالات المتشبّعة بالفساد!

اقترب من زوجته، وهمسَ لها:

- أنت ستتكلمين مع الدكتور، وتحدثينه عن الحال؟

- لا تحرجني أمام الطبيب، ألستَ أنت الرجل؟!

- نعم... ولكن...

دخلت الممرضة غرفة الانتظار تنادي باسم الرجل وزوجته، دخلا على الطبيب، الذي بدا منشغلًا باتصالاته الهاتفية... ابتسم للمرضى. ابتسم خالد بلطف... ويد الطبيب تحلّق في الهواء مشيرة بالجلوس. تنهدَ الطبيب:

- تفضل خالد... ما المشكلة؟

نظر الرجل إلى زوجته الصامتة... وقال متعثرًا بكلماته:

- الحقيقة يا دكتور... الموضوع بخصوص... يعني الإنجاب...

- هناك مشكلة سيد خالد بخصوص الإنجاب؟!!

- لا. لا... ولكن... ربما...

- هل أجريتما فحصًا أو تحليلًا من قبل؟

- في الحقيقة أجريناه قديمًا.

- وما نتيجته؟

- ضاع في الزمن...

استدعى الطبيب الممرضة، وكتب ورقة تحليل وفحص للزوجين...

نهضا مسرعين باتجاه الباب، وعلامات استفهام تتمدد على وجه الطبيب!

«الصمت ينثر في دواخلنا ضجيج الأسئلة!»

قالها خالد لزوجته حينما اتجها إلى المستشفى، أوقف سيارته بجانب ذلك العمود الشامخ في فضاء الفناء الخارجي... ترجلا إلى العيادة.. يدعوان الله أن يخفف وطأة النتيجة عليهما. التفت خالد إلى زوجته في المصعد وهي تتمتم بكلمات تشبه الغناء!

دخلا مكمن الصمت في غرفة الانتظار، فالنتيجة ستقترب أكثر إليهما... لحظات تعلّق الوقت في الفضاء!

مكثا ما يقرب الساعة بانتظار الطبيب، اقترب خالد من زوجته الغارقة في غنائها:

- يبدو أن الدكتور تأخر؟!

- سيأتي حتمًا... فلا تستعجل... يا رب سترك وعفوك.

- ربما استعجلنا في المجيء!

- ...

مرَّ بهما الطبيب متجهًا إلى عيادته... نهض خالد، فأمسكتْ به زوجته، فقالت:

- دعْهُ حتى ينادي بالأسماء... لا تستعجلْ! اجلسْ.

- الصمت والانتظار قاتلان!

- يارب سترك.

دعت الممرضة بثلاث حالات، وفي كل مرة يحاول خالد النهوض، تمنى لو أنه كان في المقدمة مع حضوره مبكرًا... سأل زوجته:

- لماذا يدخلون هؤلاء قبلنا؟

- ربما حجزوا مبكرًا!

دخلت الممرضة ونادت باسم خالد، تنفس الصعداء... حاول أن يستجمع قواه... تبسّم قبل الدخول على الطبيب. رحّب الدكتور بهما:

- تفضل سيد خالد. استرح هنا.. تفضلي مدام...

- كيف النتيجة دكتور؟ إن شاء الله جيدة!

استل الطبيب ورقة النتيجة من الملف. تأملها قليلًا. وأشار عليها بالقلم الأخضر. تبسّم في وجه خالد، وقال:

- دعْ عنك كدر الصمت، وضجيج الأسئلة... الحياة حلوة... الحياة أيس كريم...

مقاله الأصلع

- أصبحتُ الآن أشهر صحفي في الوطن!

يرددها كلما انتهى من مقاله اليومي في الصحيفة، يشعر برغبة جامحة تجتاحه حينما يفرغ من كتابة مقال، وحينما يلامس شغاف الآخرين بما يكتبه عن معاناتهم، يستسلم لنشوة الانتصار لهؤلاء المكلومين، ويكتب على شارعين بأشواك الحروف المعلقة!

- أصبحتُ الآن أشهر صحفي في الوطن!
- ماذا تقول يا رجل؟!
- أصبحت الآن أجيد العزف على الكثير من قضايا الوطن!
- يبدو أنك وصلت إلى مبتغاك يا خالد.
- المبتغى إسعادك دومًا يا أحلى البشر.

يخرج من منزله جذلًا بما وصلَ إليه من محبة عظيمة. يصطدم بوجه كريه في الحي؛ حقود طالما تمنى له الإخفاق. يجتازه مسرعًا إلى الصحيفة. يدخل إلى رئيس التحرير مختالًا بحضوره الجماهيري. سلّم على رئيسه ليفاجأ بظرف يمتد إليه. كان لا يشك لحظة في المكافأة المالية التي سيحصل عليها...

فتح الظرف بثقة. لكنه سرعان ما تراجع حينما لاح له الخبر. توجه إلى كرسي قريب منه. رمى بجسده المنهك...

- ما هذه المكافأة المجزية يا مدير؟!
- حقيقة أنا في قمة الأسف لما حدث، هناك أمور لا يمكن أن نتحدث عنها!
- إن الذي يدور في الكواليس يشبه الظلام! ولا يستطيع أحد إثباته!!!
- عزيزي سبق وأن أخبرتك بأن مقالاتك جميلة، لكنها تسبب لنا الحرج في مواجهات القطاع الخاص والمسؤولين!
- ربما لم أعِ الدرس جيدًا! ربما!

نهض بثقل من كرسيه، كأنه مكث في حضنه دهرًا من التعاسة. نهض والشوك يخدش مقلة ثكلى ببكاء حرية مسلوبة!

قرّر أنْ يكتب مقالًا يليق بتاريخه الصحفي؛ ليحلق به عذابات الآخرين. عاد إلى منزله وأغنية حزينة تغفو على فمه...

- هلا بزوجي العظيم والكاتب الكبير.
- مرحبًا...
- ما بالك تبدو حزينًا، ومحاطًا بأسئلة الظلام!

- لا شيء... ربما لأنني قبضت اليوم مكافأة قيّمة من رئيس التحرير!
- هكذا إذًا... أردت أن تخبئها عني. وما هي... هيّا أخبرني...
- فصلي من الجريدة!
- ماذا؟!!... وهل هذه مكافأة تليق بعذابك طوال السنين المؤلمة في الصحيفة!!!
- آآآه... هذه المكافأة الرديئة التي طالما انتظرها المخلصون!

دخل إلى مكتبه واعتزل أهله أيامًا لا يخالطهم، كلّما كتب مقالًا شعر بزَغَبٍ يندسُّ في أسطره، أراده مقالًا مختلفًا على غير ما عهده القرّاء، أراد أن يحلق به رؤوس الذين يحاولون الارتقاء كذبًا في مقالاتهم الصحفيّة.

وفي إحدى الليالي دخل عليه ابنه الصغير؛ ليلهو قليلًا... فصرخ والده؛ قائلًا:

- نعم. نعم... أريده مثل رأسك يا بني... أصلع.

فكتب تلك الليلة مقاله الأصلع الذي انتشر سريعًا في مواقع الانترنت، فانهالت عليه العديد من العروض في كبريات الصحف العربية والعالمية... فكان مقاله الأخير!

العازفان

- الحنين إلى الوطن يغمرني، ويخالج شعوري منذ يومين!

- أيُّ حنينٍ إلى الوطن إن وطني هذا (القانون) الذي تعلمته على يديكَ المرهفتين، وآلة (العود) و(الناي) الملقى بجانبكَ صديقان لنا في المنفى... يا رجل دعْ عنك الوسوسة!! فهي داء يخلخل فيك نجاحات إبداعكَ الفني!!!

قاطعها قائلًا:

- إذًا ماذا لو تقابلنا هذا المساء في حديقة المنزل نعزفُ ومَنْ يطرب الآخر ينتصر!!

- حسنًا؛ حينما أنتهي من عملي سأنتصر عليكَ أيها المعلم العظيم وأعزف للبقاء هنا أغنية الانتصار. (قالتها مبتسمة في غنج).

- وهو كذلك. نلتقي مساءً من أجل معزوفة الرحيل..!!

كانا كثيرًا ما يلتقيان عند حواراتهما الزوجية في غرفة النوم يعزفان، وفي الحديقة يحلقان بعزف خيالي؛ يعزفان

للحزن، ويعزفان للفشل، والنجاح، يعزفان في حالات الانتصار والهزيمة حتى يلتقيا عند فاصلة التفرد في الأداء.

في المنفى ذاع صيتهما بجمال عزفهما الشرقي. فكانت بداية لقائهما حضور سهرة غنائية هادئة. التقت امرأة تهوى الموسيقى رجلًا عازفًا؛ يعشق الناي والعود، وأستاذًا في المعهد الموسيقي بغرناطة.

تحوّلا عبر الزمن إلى عازفين متألقين. عرفا في المدينة بأشهر عازفين، فطار صيتهما عبر أرجاء أسبانيا مبدعَين في العزف الشرقي.

أحضرت الشاي الأبيض المعطّر بالياسمين إلى زوجها المكتئب، باغتته بعينين جميلتين يتيه السحر فيهما. ابتسمت واثقة بحضورها هذا المساء. دنت من زوجها قائلة:

- شايٌ يفوح عطرًا ونغمًا لأحلى عازف في الدنيا...

- ...

- ما بالُ عينيك تدمعان!

- لا شيء لا شيء.

مكثا يتبادلان النظرات في هدأة الليل، وسحر الطبيعة الفاتنة في الحديقة؛ يثير فيهما الإحساس بالنغم تناولت المرأة في صمت خجول آلة القانون، فعزفتْ له معزوفةً ندية بنداوة ليلهما البهي. استرسلت تغني الحنين إلى لقائهما

الأول، وببراعة الفنان تسللت لأغنية طالما أحبها وتألق في أدائها.

تعلم هذه العازفة أن المرأة الساحرة تستطيع انتزاع الرجل من عذاباته بسحر أنوثتها وذكائها العاطفي.

تمايل طربًا لعزفها البارع، أخذ الناي بكفه المرتعشة محاولًا مجاراة زوجته في حوارهما الموسيقي. ترنّم بعزف قديم حزين... وحينما شعرت المرأة بتفوقه وتمكّن الحنين منه إلى وطنه؛ أعلتْ موسيقى الحياة وأشعلت جذوة الفرح في نفسه.

هي تعلم أنها بارعة في الفن والحياة، تتوغل أكثر في حياة زوجها، تدوزن نغماته بصبرها عليه. وتشد أوتاره حين يرتخي، وتخفض له أجنحة العطف والحنان.

مضى الرجل منكسرًا بحزن لألم الغربة الذي أقلقه أخيرًا، أراد أن يعزف أغنية العودة، والمرأة تثنيه بمعزوفة أسطورية جسّدت فيها معالمَ العذاب. تحكي له معاناة الشعوب المهاجرة وألم السنين، ظل يقاوم العازف عزف زوجته، وهي تثنيه مرة بعد مرة بعزفها الأسطوري... حتى حلّقت به بعيدًا في الأفق! فشارف خيط أبيض لفجر جديد معلنًا انتصار عزفها لأغنية البقاء.

الفراغات البيضاء

كلما أمطرتِ الليالي زادَ جدبُ القلوب، واحتوتها وساوسُ الإثم، وأشعلتْ في الذات نيرانَ الانتظار!

هذا ما قالتْهُ ذاتَ ضجرٍ. أخبرها بأنه تجاوزَ خطيئة الحب!

- نعمْ. هو كذلك!
- وماذا إذًا؟
- أنا متأكدة بأنه تعلّقَ بي حد الجنون!!
- واهمة... !!! (قالها ضاحكًا).

لاذتْ بصمتٍ حزين في زاوية مظلمة في غرفتها، حتى أبكت الحزن بداخلها، فكانت تتمتم:

- إنه واهم!!... فهو لا يعرفهُ جيدًا... لا يعرف أنه مستترٌ خلفَ أغنياتِه المؤلمة! لا. لا يعرفه مطلقًا... ولا يعرف أنه أسمى الأصدقاء وأنبلهم. لم أرَه قط يختبئ خلف الأقنعة... لا. لا إنه رجل في النهاية؛ سأختبره إذًا!

حين استيقظ الفجر بداخلها، عزمت على الاتصال به، ترددت كثيرًا... أجّلَتْ ما عزمتْ عليه... فكان

يلاحقها طيفًا. يشعلُ فيها ذكرى الدفء في شتاءات الوحدة!

إحساسها به ما زال يحتويه الكثير من الفراغات البيضاء...

جدارٌ عالي البناء. مسوّرٌ بالأشواك يعزل العلاقة بينهما، فهو إن دنا منها خشي عليها من أهلها، وإن ابتعدَ عنها فقدَ سعادةً يحتاج إليها في ليالي الصمت!

تساءلت ذات مساء:

- هل أنا واهمة؟

بينما كان هو يجيب في صمته البعيد:

- لستِ واهمة!

حاولا أن يخترقا جدار الصمت، ولكن دون جدوى!

فهي ما زالت تحيطها الأشباح، تلاحقها، وتزرعُ فيها أوهامًا كاذبة، تطاردها في الطرقات وبين البساتين، تتبعها في الأمكنة المأنوسة والموحشة!

- لستِ واهمة!

- لستِ واهمة!

كثيرًا ما رددها في مساءات عزلته، صارخًا بها في وحدته:

- لستِ واهمة!!!

ليست واهمة؛ لأنه أرقى من الخديعة، وأبعد ما يكون عن ظلال الأشباح!

حين اتصل بها ذات صباح، لم يعلم بأنها استسلمت لمرضها الذي أبعدها عنه!

فكتبَ لها رسالةً يحدثها عن مرضها... ويدعو لها بالشفاء... تعجبت منه، كيف عرفَ بمرضها؟! فخشيت من الجنّ الذي تخبره بحالها، هي لم تعلم بقوة فراسته!

مكثتْ أيامًا، ولم تتصل به. ولم يتصل بها!

تماثلت للشفاء، فتوجهت نحو نافذة الغرفة في مِشية مريضة متمايلة. فتحتها بضعوبة. استنشقتْ نسمةً باردة سرت في جسدها الذابل، شعرت بعودة النشاط والحيوية يدبان في داخلها المهترئ.

فتذكرت أنها أضاعت شيئًا لم تعد تذكره، ليس حاضرا الآن في ذاكرتها!

عادت إلى سريرها نظرت إلى السقف الجبسي، تأملت بياضه الناصع، ظنت بأن هناك أمرًا ما يحدث في خفاء الذاكرة. ساهمة في أطياف الذكريات.

دخل عليها مبتسمًا وقال:

- حبيبتي أما زلتِ نائمة.
- كلا يا خال، ولكن ثمّة شيء أضعته...
- أما زلتِ واهمة!

- يا خال أنت أقرب الناس إلي، وإن أردت الحقيقة سأخبرك إياها؛ فأنت لا تعرفه جيدًا، بل أنتَ الواهم! واعذرني لصراحتي.
- بيننا الأيام يا هند!!!
- ما رأيك لو تخرج بي إلى البحر... أريد أن أرى الموج يلامس قدمي المثقلة بالألم!
- هيًّا بنا، ولكن بعد أن تغريني بالفطور، وتتوسلي أكثر وأكثر حتى أقتنع... (قالها مازحًا)

توجها إلى البحر، يتأملان زرقة الماء، ومداعبة الموج لقدميهما؛ وإذ بطفل قريب منهما يغرق... يطلب النجدة... توجهت إليه هند مباشرة وأنقذته من الغرق، وحملته بين ذراعيها المرتجفتين، تقدمت به إلى أمّه، فقالت صارخةً في وجهها:

- هذه حياة لا تجعليها تهرب منك لحظة!
- ...

شعرت هند بأنها تعيش واقعًا مؤلمًا في عالم مزيّف، لكنها فجأة لمحت رجلًا بالقرب منها على صخرة؛ محدّقًا إلى البحر، يرقب عوّامة سنارته البيضاء، ويدندن بأغنياته للماء، اقتربتْ أكثر فصاحتْ بخالها قائلة:

- يا خال... لستُ واهمة!
- والله إني، لستُ واهمة.

ضوء شفيف

- صالح بن أحمد محمد السهيمي.
- كاتب وباحث في الأدب العربي. مهتم بالسرديات العربية القديمة والحديثة.
- مشرف ثقافي لمدة ثلاث سنوات بتعليم جدة (1423 - 1426هـ).
- محرر ثقافي بجريدة اليوم السعودية (1423 - 1427هـ).
- عضو هيئة تحرير دورية الراوي المختصة بالسرديات العربية ـ نادي جدة الثقافي.
- أصدر مجموعة قصصية بعنوان: (أغنية هاربة) عن نادي حائل الأدبي. ومؤسسة الانتشار العربي بيروت 1430هـ
- للتواصل:

ص.ب: 124288

جدة: 21342

السعودية

البريد الإلكتروني:

salsuhimi@hotmail.com

أغنية للجياع

« ... استندَ إلى سدرةٍ قُرْبَ بئرٍ مُقْفِرَةٍ، تلفّتَ حولَهُ. لم يرَ أحدًا. اطمأنّ لحالِ الجياعِ. أدركَ أنهم نائمون في منازلهم، وهَمّ أن يُوقظَ الأملَ في صَبَاحَاتِهِ المشرقة. حفرَ البئرَ المعطّلَة، وعزمَ على أن يُدندنَ لهُم الأغنياتِ عبرَ الصدى الصاعدِ إلى أعلى؛ ليغسلَ همومَهُم بها، وبما سيخرجُهُ من حياةٍ مخبئةٍ في سحّارةِ الأيام.

نداوةُ البئرِ ورائحةُ الموتى تنبعثُ من تحتِ قدمِيه، لكنّ أغنياتِه واصلتِ الحفرَ من أجلِ الجياعِ، حتى هجمَ عليه الفجرُ بمخلبِه الدامِي؛ حينها لامست قدمه الماء فاستيقظ الفرحُ منتشيًا برائحةِ عطرِ الجَنُوب ...».




ISBN 978-614-404-329-5
9 786144 043295